الخطاب الحجاجي والقيم الاجتماعية من خلال أعمال أوسوالد ديكرو لـ "أنيبال ألفيس"(*)

د. ذهبية حمو الحاج

مقدّمة:

يُنظر إلى نظرية الحجاج التي اقترحها دكرو O.Ducrot في إطار البحث في التّواصل الاجتماعي، وبطريقة خاصّة في منظور دراسة الرّسائل اللّغوية التي يتبادلها أعضاء مجتمع معيّن في ظلّ مختلف أشكال التّواصل، انطلاقا من المحادثة المتداولة إلى الخطابات التي تبثّها وسائل الإعلام، وبشكل عام، كلّ نشاط لغوي ذاتي مشترك. وبصفتنا باحثين في ميدان التّواصل الاجتماعي، كنّا مهتمّين منذ البداية بإبراز العلاقات بين العوامل والبنى التّواصلية، أو بنى اللّغة المنطوقة، والعلاقات بين العوامل والبنى الاجتماعية المعنية. إنّ هذا الاهتمام "بشكل عام"، كان في أصل مقاصد أهمّ تيار للبحث المرتبط بمنهجية تحليل المحتوى المستوحى والمحدّد كذلك من قبل بول لازارسفيلد P. Lazarsfeld ، وهارولد لاسوال H. Laswell، وبرنارد برلسون B.Berelson[1].

بتقاسمنا مع هؤلاء المؤلّفين موضوع معرفة الحقيقة الاجتماعية من خلال دراسة الرّسائل التّواصلية وتحليلها، باشرنا على أثارهم تعلّم تحليل المحتوى وتطبيقه. إنّ تجربة التّحديدات والتّقصير من الطبيعة النّظرية والمنهجية لتحليل المحتوى بالضبط، هي التي أدّت بنا إلى البحث عن الأسس الأكثر متانة بغرض تأويلات أكثر ملائمة للرّسائل، ومن ثمّة أفضل تصوّر مثل الخطاب أو النصّ الذي يتحقّق التّواصل من خلاله.

لقد أُثيرت تحديدات تحليل المحتوى من قبل باحثين ضمنهم برلسون ذاته[2] B.Berelson . ولكن يمكن أن نُؤكّد أنّ الموهبة الحقيقية لأشيل Achille في تحليل المحتوى تتمثّل في الهشاشة النّظرية لإدراك اللّغة، ونتيجة لذلك وبين هذا وذاك لإدراك التّواصل. وفكرة الكشف ذاتها عن عوامل المعنى أو المحتوى، من خلال تحليل عوامل العبارة- بجلاء وموضوعية مثلما قيل- تُصبح غير ثابتة أمام تطوّرات نظرية اللّغة.

فضلا عن ذلك، وفي إطار منطق البحث الذي يستدعي تحليل المحتوى، فإنّ الرّبط بين المتغيّرات النصّية - أو وحدات المحتوى- ومتغيّرات العالم الخارجي عن النصوص (من طبيعة سسيولوجية، نفسية،

(*) Aníbal Alves, prof. à l'Universidade do Minho, Portugal. Traduction française de la partie principale de la leçon publique pour le titre d'agrégation, *Argumenção e Análise du Discurso*, prononcée devant le jury dont faisait partie Oswald Ducrot, le 23-03-1995. Texte présenté au Séminaire de recherche des étudiants de post-graduation, dans le cadre du programme Erasmus, à l'Université Catholique de Louvain, en Mai, 2006..

1 - B.Berelson, P.Lazersfeld, The Analysis of communication, Columbia Univ, N.York 1948.

٢- يمكننا أنّ نُذكّر مثلا:

P. Henri et S. Moscovici, 'Problèmes de 1analyse de contenu", *Langage*s, nº 11, Septembre, 1968, Didier, Larousse, pp. 36-60 ; A. Lévy, L'Interprétation des discours", *Connexions*, nº 11, 1974., Epi, pp. 43-62.

أو غيرها) كانت مؤسّسة خصّيصا على معايير التّواتر، وبالتّالي معايير التّكرار، ما لا يقدّم في ذاته معنى غير غامض، المعنى الوحيد القادر على تأسيس تأويل صحيح .

تلك هي الحاجة التي أدّت بنا إلى التّعمّق في طبيعة الرّسائل اللسانية ورهانها، ولا سيما إذا استطعنا قوله كذلك، بعدها الدّلالي. إنّ الذين يدرسون هذه المواد يعلمون مدى تعقّد وصعوبة مهمّتهم، ليس فقط في الطبيعة المعقّدة للموضوع، ولكن أيضا في اتّساع وخصوصية دراساتهم، التي هي في تطوّر على مدى العشريات الأخيرة. على كلّ حال، فإنّ دراسة اللّغة وعلم الدّلالة مسار غير قابل للتّعويض، حيث يزعم – مثلما كان حالنا– التّقدّم في فهم التّواصل البشري.

لقد أصبح واضحا بالنّسبة لنا أنّ كلّ محاولة لتعميق المعرفة في مادة التّواصل، دون المرور عن فهم اللّغة والخطاب كان مؤسّسة مآلها الفشل المسبق. وبالمقابل، تبدو لنا دراسة الصيّغ، وبُنى اشتغال اللّغة والخطاب ستشق لنا الطّريق الملكية لمعرفة التّواصل، والعلاقات الإنسانية التي تبرزها وتُقيمها. ففي إطار هذا البحث لأفضل معرفة حول الأنظمة والعمليات اللسانية والدّلالية قد اكتشفنا أعمال أوسوالد ديكرو O.Ducrot ولاسيما تصوّره الحجاجي للخطاب. يشكّل هذا الأخير الموضوع الأساس لهذا النصّ، من حيث أنّه يتعلّق بوضع مفاهيم وبُنى الخطاب، التي تسمح لنا القيام بالتّحليل، وبتلك الطّريقة أن نستخلص من الخطابات أو الرّسائل عوامل ورهانات الحقيقة الاجتماعية، والمنظور الحقيقي لدراستنا للتّواصل.

ستقتفي مبادرتنا النّقاط التالية: ١. تعرض النّقطة الأولى الإطار المفاهيمي والمصطلحي للتصوّر الخاص بالمعنى. ٢. تزعم النّقطة الثانية شرح الطبيعة الحجاجية للخطاب، والأسس الحجاجية التي هي مواضع. ٣. في النّقطة الثالثة، سنحاول ربط المواضع باعتبارها عوامل خطابية بالقيم باعتبارها عوامل من الثّقافة والاديولوجية الخاصّة بالمجتمع.، سنثير في الخاتمة الإسهام المتميّز والمبدع للأستاذ أوسوالد ديكرو في دراسة وفهم الخطاب والتّواصل، وبالتالي فهم المجتمع ذاته.

تصوّر حول اللّغة، والخطاب، والمعنى

تتمثّل فكرتنا المبدئية في وضع إطار مفهومي ومصطلحي للمقاربة المعتمدة، ووذلك بالانطلاق من الإشارة إلى المنظور التّواصلي المميّز الذي يلازمها. سوف نُثير أوّلا المنظور التّواصلي، ونُحدّد بعد ذلك تصوّرنا حول اللّغة والمصطلحية المعتمدة، وننتقل في النّهاية إلى التشخيص العام لنظرية المعنى المقترحة.

١. المنظور التّواصلي:

يكمن الهدف من دراستنا وتخصّصنا في التّواصل، فمن الواضح أن نلحّ على إبراز المنظور التّواصلي الملازم لنظريّة اللّغة والمعنى عند ديكرو، ولا يتعلّق الأمر بفرض مقاربة نفعية أو ظرفية.

بالفعل، نعتقد أنّ الرّهان التّواصلي للفعل التّواصلي الذي أوضحه مؤلفنا، يشرح في الآن ذاته طبيعة الفعل الإنساني وطبيعة الفعل التّواصلي، وبالتالي يربط أحدهما بالآخر في نواتهما الأكثر عمقا. وعلى

أثر، لاسيما إميل بنفنست E.Benveniste الذي أشار إلى منزلة الإنسان في اللّغة[1]. يستخلص ديكرو طرائق مختلفة، الرّهان الذّاتي المشترك للغة: الفعل اللساني يستلزم في نواته ذاتها العلاقة مع الآخر. لنتفاهم جيّدا، بأنّ الأمر لا يتعلق وبأيّة طريقة ما بالنّظر إلى اللّغة كوسيلة بسيطة أو أداة للتّواصل، بمعنى نقل شيء ما.

إنّ العلاقة ما بين البشر واستحضار الغير والرّجوع إليهم ملازمة للّغة، التي تعدّ بدورها وسطا ووسيلة يقيم البشر بفضلها نقاشهم الأبدي والمحتوم. وحسب كلمات مؤلفنا:" اللّغة بمعزل عن الاستعمال، الذي يمكن أن يؤديه بها تُمثّل أساسا كمقر للجدال والمواجهة للذّوات"[2]. إنّ الرّجوع إلى الآخر إذن ضروري في كلّ محاولة لتأويل الرّسالة اللسانية، ومن جهة أخرى ليست لنا الفرصة إلاّ في الكلام لإيجاد الملمح الإنساني في المعنى المصطلحي لتعريف الإنسان عند أرستوت Aristote باعتبار هذا الإنسان هو الحيوان الذي يملك الكلام (Zoon logon éxon)، المعنى الذي يبدو أقلّ بروزا في العبارة المتداولة: الإنسان هو الحيوان العاقل[3].

٢. اللّغة، والخطاب، والمعنى:

كلّ الذين يدرسون اللّغة واعون بشكل واضح بكثرة النّظريات والمصطلحيات الخاصّة بهذا الميدان المعقّد بطبيعته. والذي عرف في العشريات الأخيرة نموّا وتجديدا خارقين ليست فقط في علوم اللّغة، ولكن في العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام. ويبقى أنّنا لا نملك أيّة نظرية مطابقة حول اللّغة، وأنّ المفاهيم والمصطلحات المكتسبة متعدّدة ومختلفة وهي على صورة " غابة مظلمة" أو Selva obscura، التي أُثيرت في هذا الشّأن، عندنا من قبل النّابغة مؤلّف da litératura الأستاذ فيتور أجيار أوسلفا Victor Aguiar e Silva وهي مبرّرة وواضحة بشكل كبير[4]. ومن أجل تفادي مثل هذا الرّكود يقترح علينا أ. ديكرو O.Ducrot وبصفة اصطلاحية دقيقة الإطار المصطلحي الآتي، والذي سنشتغل به في هذا العمل[5].

نُميّز في البداية بين مستويين في المنظور المتعلّق باللّغة البشرية المتحقّق في اللغات الطبيعية: مستوى اللّغة المجرّد باعتباره الكيان المجرّد، والثّابت، والمماثل، الذي يتكرّر في ظهوره المتعدّد. والمستوى الملموس للتحقّق الشفوي الظّاهر والقابل للملاحظة في التواترات أو الأفعال اللسانية.

يعيّن هذان المستويان بشكل مختلف، وذلك حسب المؤلفين، ولكن المصطلحات الانجليزية tvpe و token مثلا تُعيّن بالخصوص كيانات من المستوى المجرّد، وكيانات من المستوى الملموس. سوف نُسمّي "خطابا" التّحقّق اللساني القابل للملاحظة في التّواصل الشّفوي. فاللّغة هي المصطلح الذي يعيّن البناء المجرّد للسانيين، الذين يستهدفون في الحقيقة اعتبار الخطاب أو الكلام. وبموازاة هذا التّمييز والتّقابل اعتُمد تمييز آخر يقابل بين الملفوظ والجملة. الملفوظ جزء من الخطاب، يشكّل الوحدة الأولية،

1- Cfr. le titre du chapitre V de Problèmes de linguistique générale, Gallimard, 1966, pp. 223, ss.
2- O. Ducrot, "Présupposés et sous-entendus", Langue Française, 4, (1969), Larousse, p. 43.
3 -F. F. Mora, "Hombre', Diccionario de Filosofia, Alianza Editorial, Madrid, 1986, II Vol., p. 1548.
4 -V. Aguiar e Silva, Teoria da Literatura, 5 éd., Almedina, Coimbra, 1983, p. 565, Note 11.
5 -Cfr. O. Ducrot, Polifonia v Argumentación, Universidad del Valle. Cali, Colombia, 1988, p. 57; O.

والجملة من جهتها هي بناء مجرّد للسانيين تسمح لهم بالحديث عن الملفوظات المفاجئة أو الممكنة. ونُسمّي المعنى الأثر الدّلالي للملفوظ، ونُسمّي الدّلالة المحتوى الدّلالي للجملة. ينبغي كذلك التّمييز في إحداثات الملفوظ بين الإحداث باعتباره نتيجة أو الفعل المنتج، وبين الإحداث باعتباره عملية إنتاج مرتبطة بنشاط المتكلّم في إنتاج الفعل اللساني. بإدراكنا لهذه المفاهيم والمصطلحات الخاصّة، ننتقل إلى تشخيص أو تفسير المعنى المتحقّق في الملفوظ أي في الخطاب.

٣. المعنى حجاجي:

إنّ الإجراء بالتّباين أو باستخلاص التّقابل ربّما تكون في الوضعية الحالية من البحث الأكثر إيضاحا والأكثر ملائمة.يُزعم بشكل مفرط إلى حدّ ما في التّبسيط لكنّه واضح، أنّ تخصيص المعنى يكون برفض منظور مزدوج حاضر في التّصوّر التّقليدي. وبعكس هذا نقول:

١. المعنى لا يمثّل الواقع خارج الخطاب.

٢. المعنى لا ينتج عن وجهة نظر واحدة معبّر عنها في الملفوظ ومرتبط بذات واحدة للملفوظ، ولكنّه ينتج من لعبة بين وجهات النّظر المختلفة الموجودة في الملفوظ. سوف نّحاول تفسير هذا المنظور المزدوج برفض التّشخيص التّمثيلي للمعنى، تُعلن عن سمته الحجاجية، وبرفضنا للتّشخيص الأحادي للملفوظ باعتباره مرتبطا بذات واحدة سوف نستخلص سمة التّعدّد الصّوتي.

٣. ١. المعنى هو التّوجيه:

تتناقض نظرية المعنى التي اقترحها أوسوالد ديكرو O.Ducrot مع نظرية المعنى التّقليدية. وبطريقة خاصّة، تتناقض مع التّصوّر التّمثيلي للمعنى. نُميّز في نظرية المعنى التّقليدية وجود في الملفوظ لثلاثة أنواع من المؤشّرات: الموضوعية، والذاتية، والذّاتية المشتركة. لنُذكّر أنّ كارل بوهلر[1] K.Buhler ورومان جاكبسون[2] R.Jackobson يقومان بهذا التّمييز.

لنرى كيف يمكننا وصف معنى الملفوظ التّالي حسب النّظرية التّقليدية "محمد ذكيّ"، يتضمّن الملفوظ حسب هذه النّظرية مظهرا موضوعيا في حدود ما يقوم بوصف محمد، ويتضمّن مظهرا ذاتيا (عاطفي أو تعبيري بمصطلحات رومان جاكبسون Jackobson) ، بحيث يعبّر عن نوع من الإعجاب للمتكلّم إزاء محمد، ويتضمّن مظهرا ذاتيا مشتركا، لأنّه يسمح بأن يطلب للمتلقي أن يتصرّف بطريقة ما إزاء محمد. في بعض الأحيان، نُعيّن المظهر الموضوعي على أنّه تعييني، والمظهر الذّاتي والذّاتي المشترك على أنّهما ضمنيان.

وإزاء هذا التّصوّر الخاص بالمعنى، يقابل ديكرو Ducrot التّصوّر الخاص بالقيمة الحجاجية بالملفوظ. تكمن السّمة المميّزة والأولى في حجاجيته، أي في التّوجيه الذي يفرضه على الخطاب وعلى

1 -K. Buhler, Sprachtheorie, Iena, 1934, Ch. 2, sect. 2 (référ. de O. Ducrot, Polifonia y Argumentación, Univ. del Valle, Cali, Colombia, 1990, p. 49).
2 -R. Jakobson, Essais de Linguistique Générale, Ed. Minuit, Paris, 1963, p. 263. ss.

الآثار النّاتجة، وهي من طبيعة ذاتية وذاتية مشتركة. فبعد أن نقول:" محمد ذكيّ"، لا يمكنني أن أواصل الخطاب بقولي مثلا:" إذن، لا يمكنه حلّ المشكلة"، وإنّما أقول:" محمد ذكيّ، إذن يمكنه حلّ المشكلة".

إنّ هذه القيمة الحجاجية سابقة لأيّ تمثيل حول ذكاء محمد، بطريقة حيث أنّني عندما أقول: "محمد ذكيّ" أقوم ودون شكّ بوصف محمد، ولكن هذا الوصف مرتبط بالإعجاب الذّاتي الذي يثيره محمد في ذاتي، إلى حدّ لا يعني ذكاء محمد شيئا دون هذا الإعجاب. يحدث الشيء نفسه مع مظاهر الذّاتية المشتركة: القرل أنّ محمدا ذكيّ يعني بطريقة غير منفصلة أن نطلب من المخاطَب أن يتصرّف بطريقة ما إزاء محمد. إنّ الوصف أو المظهر الموضوعي مقدّم إذن من خلال التّعبير عن موقف ودعوة المتكلّم إزاء المخاطَب. وكخلاصة، تتضمّن القيمة الحجاجية المظاهر الذّاتية والذّاتية المشتركة، التي يتكوّن من خلالها المظهر الموضوعي.

كلّ النّظرية الحجاجية موجّهة إلى تبيان هذا التّصوّر للقيمة الحجاجية للمعنى. لنشر منذ الآن أنّ هذا التّصوّر الخاص بالمعنى متوافق مع اشتراك كلمة "المعنى" في اللغات الرومانية، بمعرفة: الدّلالة والاتّجاه. وهو ما يتطابق في اللّغة الانجليزية بالخصوص مع Meaning والاتّجاه. وكذلك في اللّغة الفرنسية والبرتغالية نتحدّث عن المعنى على أنّه **دلالة** الكلمة، وعن المعنى على أنّه اتّجاه لمسار. يمكننا القول أيضا أنّ معنى الكلمة هو توجيه في الخطاب. تعرض الفكرة ذاتها في مفهوم القيمة الحجاجية.

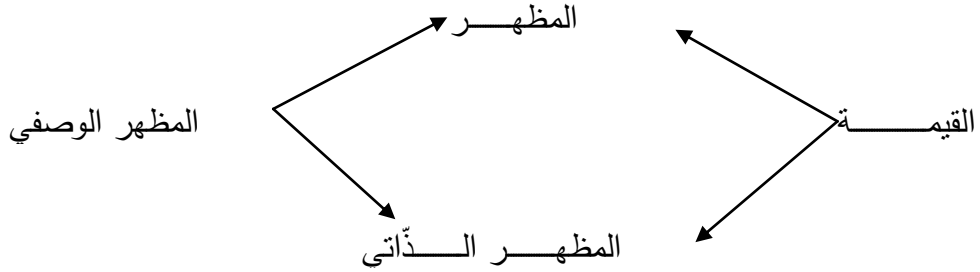

تشكّل القيمة الحجاجية للملفوظ ميزة عملية للتّعرّف على الملفوظ باعتباره وحدة من الخطاب، الذي يُبنى كمتتالية من الملفوظات. يتمثّل السّؤال في: كيف يمكن تحديد مختلف الملفوظات باعتبارها وحدات مكوّنة للخطاب؟ يقترح ديكرو قاعدة عملية– دون الزّعم أنّها نهائية– تتمثّل في معالجة التّقطيع، فقط إذا لم يختل المعنى بوساطته[1]. مثلا: الجوّ دافئ في الخارج، لنذهب في نزهة. بالنسبة للبعض، يتعلّق الأمر بملفوظين. إنّ التّحليليين هم الذين يتعاملون بالخصوص مع مفهوم التّعيين، وهم الذين يعتقدون أنّ الوظيفة الأساسية للملفوظ هي وظيفة إيصال المعلومة. يستخلص المحلّلون أنّ الأمر يتعلّق بملفوظ كامل ينبغي أن يكون مفصولا عن المقطع الآخر، الذي هو ذاته ملفوظ كامل.

إنّ الأشياء تحدث بشكل مغاير حسب نظرية الحجاج. نزعم –وهي نقطة أساسية– أنّ الأمر مرتبط بملفوظ واحد، مادام المقطع الأوّل حجّة للمقطع الثاني، ويفقد معناه أو قيمته الدّلالية إذا فصلناه. زد على ذلك، يمكننا تبيان أنّه حتّى من وجهة نظر إخبارية، لا يوجد ملفوظان، ولكن ملفوظ واحد. بالفعل، معلومة

1- O. Ducrot, Polifonia y Argumentación, Universidad del Valle, Cali, Colombia, 988. p. 53.

المقطع الأوّل غير قابلة للفهم إذا لم نكن على دراية بالثّاني. لنقارن الملفوظين التاليين: أ) الجوّ دافئ في الخارج، لنذهب في نزهة. ب) الجوّ دافئ في الخارج، لا نذهب في نزهة. ينبغي الإشارة إلى أنّ المقطع الأوّل في أ) وفي ب) ليس له المعنى نفسه، إذن لا يقدّم المعلومة ذاتها. ليست الحرارة ذاتها في كلتا الحالتين. بشكل عام، سنقول في التتابع حيث المقطع الأوّل هو حجّة للمقطع الثّاني، أنّ الأمر يتعلّق بالملفوظ ذاته. وبعدما صرّحنا بملامح التّصوّر الحجاجي للمعنى بالتّباين مع التّصوّر التّمثيلي، نأتي الآن إلى تصوّر المعنى المتعدّد الصوت.

٣. ٢. المعنى متعدّد الصوت:

يتمثّل تشخيص الملمح الأوّل لنظرية التّعدّد الصوتي[1] في تناقضه مع النّظرية الكلاسيكية لوحدانية الذّات المتحدّثة، بمعنى فكرة أن يعبّر شخص واحد في الملفوظ. وضد هذه الفكرة، فإنّ نظرية التّعدّد الصوتي للتلفّظ تُؤيّد وجود في الملفوظ ذاته عدّة ذوات بأوضاع لسانية مختلفة، وكذلك نُميّز الذّات التجريبية، التي تُمثّل مؤلِّف أو منتج الملفوظ، والمتكلّم الذي هو المسؤول عن الملفوظ، الذي يظهر غالبا في الملفوظ، والمتلفّظ أو المتلفّظين الذين يمثّلون وجهات النّظر الحاضرة في الملفوظ. هؤلاء المتلفّظون ليسوا بأشخاص أو بعوامل ، ولكن " نقاط تنظيرية" مجرّدة. ويمكن للمتكلّم أن يملك مواضع مختلفة إزاء وجهات النّظر هذه.

لنرى مثالا عن التّعدّد الصوتي. المشهد يحدث في مطعم فاخر في باريس. يتواجد زبون حول طاولة وفي رفقته الوحيدة كلب صغير teckel. وباعتقاد مدير المطعم أنّه مضطرّ لمحادثة زبونه المنفرد، فيوجّه له كلاما: " أفترض سيّدي أنّكم تستمتعون بالوجبة التي قدّمناها لكم لحدّ الآن. لأنّه في الحقيقة طبّاخنا هو طاه أوّل سابق لملك السّويد". الزّبون لا يجيب والمدير يتابع :" أرى أنّكم اخترتم خمرا من نوعية رفيعة، مثل كلّ الخمور التي يختارها نديمنا، يحدث مثلما ترون، أن يكون لي الحظّ في توظيف النّديم السّابق لملكة انجلترا". دون إجابة، ودون افتقاد للشّجاعة يواصل المدير:" لاحظوا، إن كان خادمونا دقيقين، وحذرين، ونظيفين، وسريعين، ذلك لأنّ مدير ترتيب الطاولات كان في خدمة ملك اسبانيا". بقي الزبون أبكما. فهم مدير المطعم أنّه من الحذر تغيير المحادثة، وبالإشارة إلى الكلب الصّغير، يتعجّب " ولكن ما أجمل teckel (الكلب) كلبكم سيّدي". في اللحظة ذاتها، يُجيب له الزّبون:" كلبي سيّدي، هو سان برنار[2] Saint Bernard سابق".

في مثل هذه الحالة، والسّخرية مثال، فمن الواضح أنّ وجهة النّظر، التي تؤسّس السّخرية ليست هي وجهة نظر المتكلّم أي الزّبون، ولكن وجهة نظر المخاطَب، أي مدير المطعم. وبتعدّد المنظورات الموجودة في الملفوظ، ينبغي اعتبارها كلّها أثناء تأويله. وهذا يعني أنّ اعتبار معنى الملفوظ يتضمّن إبراز التّلفّظ على أنّه مواجهة للأصوات المتعدّدة، التي تتراكب أو تستجيب إحداهما للأخرى، ولكن في مستوى

1 -Ibidem, p. 15, ss.
2 -Ib., p. 21.

أعمق يصنع المتكلّم حوارا بين الأصوات الأكثر عاملية (المتلفّظين)، فكذلك ينبغي على وصف الملفوظ وتأويله أن يأخذ في الاعتبار عوامل مثلما هي كالأتي[1]:

١. المتلفّظون: يتعلّق الأمر بوجهات نظر حاضرة في الملفوظ، المتلفّظون (س) هم سندات مجرّدة لوجهات النّظر، وليسوا عاملين، فهم لا ينتجون شيئا. المسؤول عن الملفوظ مثلما قيل هو المتكلّم، المحدّد بتلك الصّفة في الملفوظ ذاته. العامل الأول لمعنى الملفوظ هو تقديم وجهات النّظر أو عرضها.

٢. موقع المتكلّم: يتمثّل العامل الثّاني في تحديد موقع المتكلّم إزاء المتلفّظين، نُميّز ثلاثة مواقع:

✓ المماثلة: هو حال الإثبات. مثال "محمد جاء"، فالمتكلّم يتماثل مع وجهة النّظر، التي تقدّم مجيء محمد.

✓ الموافقة: وهو حال الافتراض المسبق. مثال:" توقّف بيير عن التّدخين"، فالمتلفّظ يقرّ بوجهة النّظر المفترضة " بيير كان يدخّن سابقا"، ولكنّه لا يتماثل معه.

✓ الرّفض: إنّه حال النّفي والمزاح. لنُذكّر بمثال المزاح حول الكلب الصّغير teckel.

٣. التّمثّل: يتعلّق الأمر بتمثيل المتلفّظ مع شخص محدّد (الشّخص ج). السّخرية توظّف كمثال. في قصّة الكلب الصّغير" "teckel، فالمتلفّظ السّند من منظور السّخرية مقترن بمدير المطعم.

ومجموع هذه العوامل تبرز تعقّد المعنى وسبب وجود تصوّر التّعدّد الصوتي لديكرو Ducrot مقابل التّصوّر التّمثيلي للملفوظ ولوحدانية الذّات. وبعد عرض بالملامح الهامّة التّصوّر الحجاجي والتّصوّر المتعدد الأصوات للمعنى، لتأتي الآن إلى شرح النّظرية الحجاجية التي ستقدّم لنا –نأمل ذلك– إطارا لتحليل الخطاب الذي هو في أفق بحثا.

٤. النّظرية الحجاجية للخطاب

للوصول إلى تأييد فكرة الحديث يعني الحجاج ، التي هي المستوى النّظري حيث نزعم تثبيت تحليلنا للخطاب، الذي يوجّه هو ذاته إلى المعرفة السسيولوجية، نجد ديكرو Ducrot ومساعدوه ولاسيما جون كلود أنسكومبر J.C.Anscombre قد قطعوا طريقا طويلة.

يحسم السؤال منذ البداية مع العمل التّصوّري وتحديد اللّغة، إذن رصد الملامح المميّزة للبحث، بالبحث مثلا في مقارنة بعض البنى وعوامل اللّغة العادية مع مطابقاتها في لغات المناطقة والرياضيات[2]. وفي هذا المنظور، وضع ديكرو وأنسكومبر نظرية لسانية للحجاج، مع الحرص على وضعها أوّلا في مستوى اللّغة (النّظام)، والاعتراف بعد ذلك، باستثمارها في مستوى تحليل الخطاب، ومن ثمّة الاعتراف بمكانتها في مستوى نظرية الخطاب. مثلما سوف نرى ذلك، لا يوجد تناقض بين النّظريتين، اللتين ليستا في الحقيقة إلا لحظتين في متابعة المشروع ذاته، الذي يتمثّل في اعتبار ما نعنيه بالتّحدث. بالعكس،

1 -Ib., p. 66.
2 -Cfr. O. Ducrot, Titres et travaux, École des Hautes Études en Sciences Sociales. Paris, 1986, p. 8. passim.

يسمح لنا هذا التّطوّر التّاريخي للنّظرية الحجاجية ملاحظة ملمحين متميّزين للمقاربة العلمية، التي وسّعها مؤلفنا، والتي نلحّ على تثبيتها: العودة إلى ظواهر (التّجارب) التأويل المفتــوح الذي تتطلّبه العلوم الإنسانية.

يُظهر انتقال النّظرية الحجاجية في اللّغة إلى النّظرية الحجاجية في الخطاب إشكالا مزدوجا حاضرا بقوّة في مبادرة ديكرو Ducrot ، باعتباره لسانيا وفيّا لمبدأ الوجاهة الذي هو رأي شكلاني قبلي، ووفقه ينبغي أن توصف اللّغة بالنسبة للغة. وحسب هذا الرّأي القبلي كان ينبغي تناول الحجاجية ووضعها في اللّغة، وحسبه (ديكرو) هذا الشيء غير قابل للتّصوّر بالنّظر إلى حدث كلامي بسيط. ولكن باعتباره لسانيا، والهدف النّظري متمثّل في اعتبار ما نفعله ونحن نتحدّث، لم يكن في إمكانه إلا الخضوع إلى أمر هذا الذّهاب والإياب المستمر بين اللّغة والخطاب (الكلام). وفي هذا، لم يقم ديكرو Ducrot إلا بإعادة الموقف المدهش الموجود عند ينفنيست، حيث يعيد هذا الاعتراف حول أولوية الخطاب بالنسبة إلى اللّغة "Nihil est lingua quod prius non fuerit in oratione" (لا يوجد شيء في اللّغة غير موجود مسبقا في الخطاب)[1]. في هذا المنظور، نفهم جيّدا أنّه بإمكان نظرية الحجاج أن تتطوّر في إطار اللّغة، مثلما تتطوّر في إطار الخطاب.

هناك ملمح تشخيصي آخر لمبادرة ديكروDucrot ، يبرزها جيّدا هذا المسار مرتبط بتصوّره، والتّفسير في العلوم الإنسانية وبطبيعة الأحداث أو الظواهر الإنسانية ذاتها. يعتقد ديكرو أنّ هذه الأمور، وعلى إثر مفكّرين آخرين مثل سقموند فرويد S.Freud وميشال فوكو M.Foucault محدّدة بـ"التّضافر"، بمعنى أنّها مرتبطة بعدّة أسباب، وعلاقات، وتأثيرات، وبناء عليه، فهي سابقة للتحليلات المختلفة والمستمرّة.، التي تحاول اعتبار هذه التّحديدات المختلفة. قد عبّر الباحث البرازيلي كارلوس فوقC.Vogt بشهادة أوسوالد ديكرو عن هذه الفكرة بالاستعارة التالية:" الأحداث في العلوم الإنسانية هي أبصال لا نهائية"[2]، بمعنى أبصال، حيث تكون الطبقات المتواصلة بعدد غير نهائي، وفي هذه الحالة، ينبغي أن يعقب تفسير طبقة بتفسير طبقة أخرى، وهكذا. إنّ تطوّر النّظرية الحجاجية لديكرو وأنسكومبر يمكن أن يُنظر إليه في ضوء هذا التّصوّر للأحداث الإنسانية[3].

٤. ١. هل ينتمي الحجاج إلى اللّغة؟

على خلاف التّصوّر السّاذج حول الحجاج، يؤيّد ديكرو وأنسكومبر أن يدخل الحجاج في اللّغة ذاتها، يمكن أن يُفسّر انتماء الحجاج إلى اللّغة من خلال نقد النّظرية التّقليدية والسّاذجة للحجاج، ومن خلال التّذكير ببعض الأمثلة. تسمح هذه النّظرية السّاذجة للحجاج بتبيان الدّور المهمل–حسب هذه النّظرية–

1- O. Ducrot, Logique, structure, énonciation, Paris, Minuit, 1989, p. 151.
2- Cfr. O Ducrot. Polifonia y Argumentación, Universidade del Valle, Cali, Colombia, 1988. p. 127.
3 -Cfr., particulièrement, Les échelles argumentatives, Minuit. 1980 ; L 'argumentation dans la langue (avec J.-Cl. Anscombre), Mardaga, Bruxelles, 1983; Le dire et te dit, Minuit, 1985. Pour le présent travail, nous avons surtout utilisé un texte plus récent, qui reprend les conférences du séminaire "Teoria de la Argumentación y Análisis del Discurso" réalisé à l'Universidade del Valle, à Cali, Colombie, 1988. L'Universidade del Valle a publié ce texte sous le titre Polifonia v Argumentación, Cali, 1990. Le passage de la forme "Standard"à la forme récente est justifié par l'auteur in Polifonia y Argumentación, o. c., p. 90, ss.

الذي تلعبه اللّغة من وجهة نظر حجاجية. وحسب التّصوّر التّقليدي، يكون الخطاب حجاجيا إذا امتثل لثلاثة شروط: حسب الشّرط الأوّل، فهو يحتوي على مقطعين، أحدهما الحجّة (أ)، والآخر هو النتيجة (ق). مثلا: إنّ الجوّ جميل، لنذهب في نزهة. الشّرط الثّاني يُؤيّد أن تُشير الحجّة (أ) إلى الحدث (ع). هذا يعني أنّ الحدث يمكن أن يكون صحيحا أو خاطئا، باعتبار الحجّة من طبيعة إثباتية، وهذا يعني أيضا أنّ الحجّة يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة بمعزل عن النّتيجة.

يُظهر مثال تطبيقي لهذه النّظرية في الاستراتيجية المتداولة بأن يطلب من المخاطَب إذا كان موافقا مع الحجّة دون أن تُعرض عليه النتيجة، مثلما نجد ذلك في هذا المثال: إنّ الجوّ جميل، هل أنت موافق؟...إذن لنذهب في نزهة.

إنّنا نبحث عن فرض النّتيجة على أساس الموافقة على الحدث. الشّرط الثالث للنّظرية التّقليدية للحجاج تعني أنّ النتيجة (ق) مستخلصة من خلال الحدث (ع)، بمعنى أن هناك علاقة استلزام بين الحدث والنّتيجة.

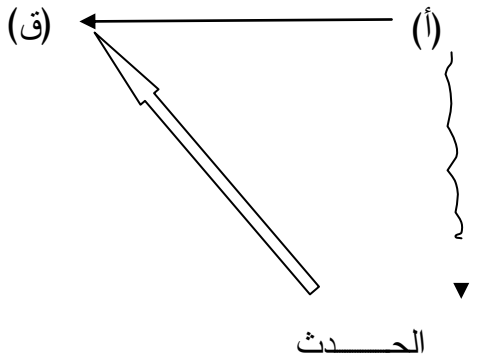

أ: الحجّة ، ع: الحدث ، ق: النتيجة

⟵ = الرّابط الحجاجي (≠ الاستلزام)

⁓ = الإشارة إلى الحدث

⟸ = علاقة استلزام

من وجهة النّظر هذه، تلعب اللّغة دورا مقيّدا في الحجاج، فهي مختزلة في الإشارة إلى الحدث (ع) بالتعبير عن الحجّة (أ)، وتُقدّم الرّوابط: إذن، إذ، حينئذ،...إلخ، والحركة الحجاجية باعتبارها كذلك تنفلت منها كليّة. إنّ الخطّ الرّابط بين الحدث والنتيجة يخضع للمنطق، وعلم الاجتماع، ومعرفتنا عن العالم، ولا يخضع للغة. وعلى خلاف هذا التّصوّر، تُدخل النّظرية الحجاجية القوّة الحجاجية في إطار اللّغة ذاتها. ولتبيانه، حدّدت في اللّغة (في عدّة لغات) البُنى اللسانية التي تملك القيمة الحجاجية ذاتها. ولهذا السّبب عُيّنت بـ البُنى الحجاجية. وهذا يعني أنّنا تُوجّه الخطاب إلى معنى محدّد بمعزل عن الأحداث التي تدخل في هذا الإطار. تأتي الأمثلة سواء من الكلمات المليئة مثل الصّفات: اقتصادي وشحيح، أو من الكلمات النّحوية مثل قليل، لكن، أو النّفي. لنعتبر مثلا الملفوظات التّالية:

(أ) لم يشتغل محمّد كثيرا

(ب) اشتغل محمّد قليلا

إنّهما يرجعان إلى الحدث نفسه، رغم أنّه في سياق حيث يقبل أن يؤدي العمل إلى النّجاح، فإنّ النّتائج انطلاقا من (أ) تتوجّه نحو المعنى السلبي، وانطلاقا من (ب) ستوجّه نحو المعنى الإيجابي. ينبغي إذن استنتاج أنّ القوّة الحجاجية في هذه الحالة تأتي من اللّغة وليس من الأحداث، مثلما يريد ذلك التّصوّر السّاذج للحجاج. وبعد هذا العرض القصير لتصوّر الحجاج في اللّغة، سننتقل إلى الصيغة الأحدث لهذه النّظرية: الحجاج عن طريق المواضع.

٤. ٢. الحجاج عن طريق المواضع:

في التّصوّر المعمّم للمعنى كحجاج، أعاد ديكرو تحديد الملفوظ الحجاجي، بالتالي، فإنّ الملفوظ يعدّ حجاجيا إذا احتوى على متلفّظ حجاجي (س). وهذا المتلفّظ حجاجي إذا امتثل لشرطين: الشّرط الأوّل، تهدف وجهة النّظر س إلى تبرير نتيجة معيّنة (ك)، الشّرط الثّاني: إنّ المسار الرّابط بين (س) و(ك) ينجز عن طريق مبدأ حجاجي يدعى الموضع[١]. ينبغي التّفصيل في شرطي الحجاجية.

الشّرط الأوّل: تهدف وجهة النّظر(س) إلى تبرير النتيجة (ك). لنُذكّر أنّ وجهة النّظر ليست فعلا خاصّا بالمتكلّم، ولكن منظور حول حالة الأشياء التي نتحدّث عنها في الملفوظ. فعلى هذا المنظور تتأسس النتيجة (ك)[٢] . يمكن للنتيجة أن تتحمّل عدّة أوضاع: يمكن أن تكون صريحة أو ضمنية، ويمكن أن يتحمّلها المتكلّم أو لا يتحمّلها. وهو ما يخلق ثلاث احتمالات، بمعرفة:

- ✓ النتيجة صريحة ومقبولة عند المتكلّم. مثال: "الجوّ جميل، لنذهب إلى الشّاطئ" . النتيجة صريحة في الملفوظ، ومقبولة عند المتكلّم، والتّلفّظ بها موجّه إلى إقناع المخاطَب بالذّهاب إلى الشّاطئ.
- ✓ النتيجة غير صريحة، ولكنّها مقبولة عند المتكلّم. لنرى الإجابة التي قدّمها (ب) لـ (أ)، الذي يقترح عليه الذّهاب لمشاهدة الفيلم: "لقد شاهدته سابقا". النتيجة ("لن أذهب إلى السينما") ليست صريحة ، ولكنّها مقبولة عند المتكلّم، لأنّ الملفوظ موجّه إلى رفض الدّعوة.
- ✓ النتيجة غير صريحة، ولا يتحمّلها المتكلّم. مثال: صحيح إنّ الجوّ جميل، ولكنّني متعب. (إجابة لدعوة "الجوّ جميل، لنذهب في نزهة"). إنّ نتيجة المقطع الأوّل "لنذهب في نزهة" غير صريحة في الخطاب، ولا يتحمّلها المتكلّم، الذي يستنتج مع الرّفض.
- ✓ النتيجة (ك) غير صريحة، ولكنّها غير مقبولة عند المتكلّم. إنّها حالة الملفوظ السّاخر. مثال: في أثناء محادثة تلفزيونية بين ممثّل الحكومة وممثّل النّقابات، يلحّ الأوّل على الانشغالات الاجتماعية

١- مصطلح أعاد إحياؤه أرسطوت Aristote ، الذي خصّص للمواضع إحدي كتب "الأرجانون" órganon، حيث تجتمع الأعمال المنطقية للفيلسوف. تعالج المواضع الجدل باعتباره علما للاستدلال، ولكنّها تستهدف انضمام المتلقي. وكذلك، وحسب بعض المعلّقين، تكون المواضع نوعا من المتمّم لكتاب Analytiques الذي سبقهم، والذي خُصّص للاستدلال البرهاني، بهذا الصدد، ينظر تعليق شايم برمان Ch. Perelman, L'Empire rhétorique, Vrin, Paris, 1977.

2 -O. Ducrot, Polifonia y Argumentación, o. c., p. 99.

للحكومة، إلى أن يجيب الثّاني: " مادام للحكومة مثل هذه الانشغالات الاجتماعية، أعتقد أنّها ستقوم برفع أجور المستخدمين". النتيجة صريحة، ولكنّها غير مقبولة عند المتكلّم.

الشّرط الثّاني: يتمثّل الشّرط الثّاني للملفوظ الحجاجي في كون الانتقال من (س) (المنظور أم وجهة النّظر) إلى (ك) (النتيجة) يتمّ عن طريق مبدأ أو أساس يدعى المواضع. تتطابق هذه القاعدة مع المصطلح الثّالث أو المصطلح المتوسّط في القياس المنطقي، الذي يبرّر الانتقال من الحجّة إلى النتيجة. وبوضوحه ومنذ الأزل في البلاغة، قد أُعيد تقييم الموضع، لاسيما من قبل المؤلّف الأمريكي تولمين بتسمية "Warrant"، أو الضّامن. يشخّص ديكرو الموضع[1] بوساطة الملامح التالية: هو مشترك، وعامّ، وتدرّجي.

١) الموضع مشترك

هذا يعني أنّ الموضع مشترك، أو ممثّل باعتباره مشتركا عبر جماعة يندرج فيها الشّخص المجسّد للمتلفّظ. الموضع حيّز مشترك للمتلفّظ ولكثير من الكيانات الأخرى. الشّخص المجسّد للمتلفّظ يمكن أن يكون المتكلّم، أو شخصا آخر، أو جماعة بكاملها (حال الأمثال). ها هو المثال: "الجوّ جميل، لنذهب إلى الشّاطئ". عندما ننطق بهذا الملفوظ نسمح بفهم أنّ اعتقاد الجوّ الجميل يجعل الشّاطئ ممتعا هو حدث تافه. بمعنى أنّنا نتصرّف وكأنّنا لم نخلق هذا المبدأ، ولكن العكس، وكأنّه موجود قبلنا. ها هي الميزة الإلزامية للحجاج. لقد أصبحت النتيجة ضرورية لأنّها مؤسّسة على اعتقاد مشترك لمجموعة من الأشخاص.

٢) الميزة الثانية: الموضع عامّ

هذا يعني أنّ المبدأ الموظّف للحجاج قد عُرض على أنّه ليست فقط في الوضعية، التي نتحدّث فيها، ولكن أيضا في لا نهائية الوضعيات المماثلة. لنعود إلى مثال الاستحمام في الشاطئ، بقولنا "الجوّ جميل، لنذهب إلى الشّاطئ"، أقول أنّ الجوّ الجميل يعدّ دائما عامل الاستمتاع بالاستحمام في الشاطئ. وهذا يعني أنّ الحجاج يتمثّل دائما في إدماج حالات الأشياء التي نتحدّث عنها في صنف أكثر عمومية، الصنف الذي من أجله يفترض أن يكون الموضع صالحا.

٣) الميزة الثالثة: الموضع تدرّجي

فيما تتمثّل التّدرجية؟ تتمثل التّدرجية في أمرين: الأمر الأوّل أنّها تضع في علاقة خاصيتين تدرجيتين، فليكن سلّمين. يضع الموضع في علاقة سلّما سابقا (ف) مع سلّم لاحق (ش)، أو السابق (ف) مع النّاتج (ش). مثال: الجوّ جميل، لنذهب في نزهة. الموضع يضع في علاقة سلّم "الجوّ جميل" مع سلّم "الاستمتاع". ينبغي علينا ملاحظة السّلالم والخصوصيات التي تضعها الموضع في علاقة، ومحمولات مقطع الحجّة ومقطع النّتيجة.

1 -Ibidem, p. 102.

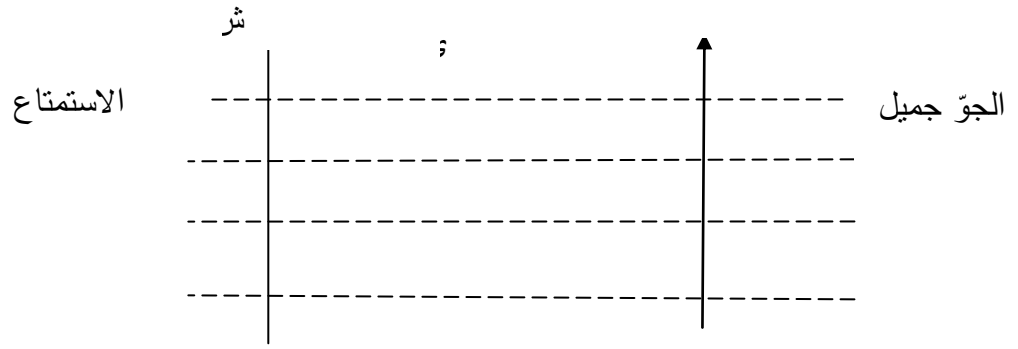

يتضمّن التّدرّج عاملا ثانيا: لقد وضعت السلالم التّدرجية في علاقة هي أيضا تدرّجية، وهذا يعني أن يطابق كلّ درجة من السّلم السّابق درجة من السلّم النّاتج، وأنّ السلم يمكن اختياره في اتّجاهين اثنين. يربط الموضع بين اتّجاه معيّن من السّلم السّابق واتّجاه معيّن من السّلم اللاحق. مثال: "كلّما صعدنا في سلّم الجوّ الجميل، كلّما صعدنا في سلّم الاستمتاع"، وبالتّبادل: "كلّما نزلنا من سلّم الجوّ الجميل، كلّما نزلنا في سلّم الاستمتاع"[1].

نلاحظ أنّ هذا الموضع الذي نعيّنه بـ (ي) تثبّت نفس معنى المسار في السّلمين. ولكن يمكن أن تظهر في الصيغتين المتبادلتين التّاليتين: أكثر حرارة، أكثر استمتاع (الصّيغة الابتدائية ١: ص ي١: + ف، + ش)، أو أقل استمتاع، أقل راحة (الصّيغة الابتدائية ٢: ص ي٢: – ف، – ش)[2].

ولكن على خلاف (ي) الذي يربط الحرارة بالاستمتاع، يمكن أن يكون لما (يَ) الذي يقابل الحرارة بالرّاحة، بمعنى أن يكون مضادّا لـ (ي). يمكن لـ (يَ) بدوره أن يأخذ صيغتين موضعيتين متبادلتين: الأكثر حرارة يطابق أقلّ استمتاع (ص يَ١: + ف، – ش)، وأقلّ حرارة يطابق أكثر استمتاع (ص يَ٢: – ف، + ش).

1 -Ib., p. 107.
2- Ib., p. 129

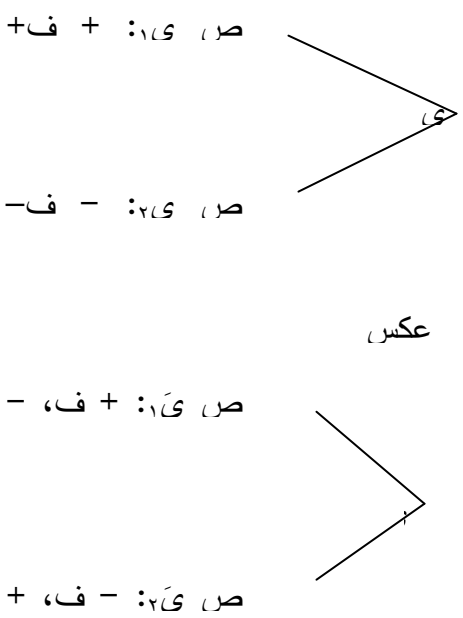

ودون التّفصيل أكثر، ولاسيما ما يتعلّق بصور بروز المواضع، لنحاول استخلاص هذا المظهر حول المواضع. باختصار، ماذا يفعل المحاجج حين يحاجج؟ بتعبير ديكرو Ducrot يمكننا الإجابة هكذا: في المقام الأوّل، يختار المحاجج الموضع، وفي المقام الثّاني يضع حالة الأشياء التي يتحدّث عنها في درجة ما من السلّم السّابق للموضع[1]. هذا يعني أن يثير المحاجج الموضع في إحدى صيغه. وهذا التّطبيق للصيغة الموضعية هي التي يدعوها ديكرو بـ" الإدراك الحجاجي للوضعية". الإدراك الذي يتصوّره على أنّه وظيفة خطابية أساسية:" الحديث عن حالة الأشياء، هو قبل كلّ شيء أن نطبّق عليها الصيغ الموضعية، وإدخالها في الصيغ الموضعية"[2].

الخطاب والقيم الاجتماعية:

لا يستهدف موضوع دراستنا للنّظرية الحجاجية المعرفة الوحيدة لعلم الدّلالة اللساني. مثلما قلنا، كان هدفنا متمثّلا في معرفة المجتمع من خلال معرفة قيمته البارزة في رسائل/ خطاب التّواصل الاجتماعي. وللوصول إلى هذا الهدف بالضّبط، تقدّم لنا نظرية الحجاج طريقا، ينبغي علينا إذن تحديد نقطة التّمفصل بين هدف (موضوع) بحثنا– القيم الاجتماعية في خطاب التّواصل الاجتماعي– والنّظرية الحجاجية للخطاب. نعتقد أنّ المواضع تشكّل نقطة التّمفصل هذه. لنفصّل قليلا في رهان هذا التّمفصل.

١. القيم، المجتمع والتّواصل

إنّ وجاهة منظور بحثنا المتمثّل في فهم أفضل لمجتمع معيّن من خلال تحليل التّواصلات اللسانية، خصوصا باستخلاص القيم الاجتماعية الخاصّة بها لن تكون موسّعة هنا. سوف نتبنّى وجهة النّظر

1 -Ib., p. 109.
2 -O. Ducrot, “Topoi et Formes Topiques”, Bulletin d’Études de Langue Française, 22, 1988, p. 5.

المقبولة عند عدد كبير من علماء الاجتماع والانثربولوجيين، حيث تشكّل القيم بالنسبة لهم مع المعايير مبدأ تأسيس الفعل الاجتماعي ولاسيما البناء وإعادة التّكوين الاجتماعي. حينما يتعلّق الأمر بتأسيس المجتمع ذاته، نفهم جيّدا أنّه يخلق ويطوّر أنظمة وآليات مرتبطة بصياغة دائمة غرس للقيّم. بتذكيرنا بعبارة رالف لنتون R. Linton، حيث وضّحت أعماله بالخصوص هذه المسألة، يمكننا تقبّل وببساطة أن تُشكّل القيم نواة التأسيس الثّقافي، وللمجتمع، وللشخصية. يتعلّق الأمر بتأسيس ليس فقط في المعنى الأصلي، ولكن بالخصوص في معنى مبدأ الفعل المتواصل، الذي وتحت مختلف الأنماط مفعّل في البُنى والسلوكات الاجتماعية. ولكن من الواضح أنّ فعل الدّعم هذا، والتّكوين، وتجديد المجتمعات أو الثّقافات، هو في الغالب فعل أو "عملية" تواصل، حيث يدخل في إطارها ما نعيّنه بالتّواصل الاجتماعي.

تبرز في الخطابات، حيث يسمح التّواصل الاجتماعي يوما بعد يوم، وفي ظلّ استراتيجيات، ومشاريع وأوهام متعدّدة القيم التي ندّعي استخلاصها عن طريق الرّسائل أو النصّوص. من أجل هذا نعود إلى مواضع النّظرية الحجاجية في الخطاب.

٢. القيم الاجتماعية والمواضع:

حتّى نؤسّس حقّا الرّبط بين القيم الاجتماعية والمواضع، ينبغي أن تكون لنا نظرية مزدوجة تتعلّق إحداهما بالأخرى، وهو ما ليس في حوزتنا، ولا يمكننا الاهتمام به في الوقت الحالي. يبدو لنا على الأقل أنّه لاستخلاص أنّ خاصية المواضع تتواجد في القيم الاجتماعية، يكفي للتّعرّف على هذا الرّبط، أي هذا المصادفة.. وبطرقة مبسّطة، نقول أنّ ما يشكّل الحجاجية أو القوّة الجبرية للموضع يتطابق مع ما يصنع القوّة الحتمية للقيمة الحجاجية.

ومثل الموضع، تعرض القيمة الحجاجية على أنّها مشتركة عند جماعة أو عدد كبير من أعضائها، إنّها عامّة، لهذا تُطبّق على عدد كبير من المواقف. وفيما يتعلّق بالتّدرجية، يمكننا على الأقل أن نقرن بها الخاصية القطبية للقيمة، وكذلك المظاهر التّدرجية والاندماج التي يمكن أن تكون لها.

يبدو لنا أنّ وجود هذه الملامح يبرّر ارتباط المواضع بالقيم الاجتماعية، حيث تؤدّي بنا إلى الثّانية. إنّ هذا التّقرّب بين المواضع والقيم الاجتماعية هو ما تعرفنا عليه في المقطع النصّي لديكرو، فيما يخصّ العلاقة بين الاديولوجية واللّغة. وباعتبارها مكتسبة، وبصفتها تلك فإنّ اللّغة، ليست ولا يمكنها أن تكون اديولوجية، يؤكّد مؤلفنا:" أعتقد أنّ اللّغة وُضعت من أجل المجتمع الذي يتضمّن على اديولوجية، وتتكيّف مع هذه الأيديولوجية، وأنّها تشتغل وفق هذه الأيديولوجية. اللّغة بحاجة إلى أيديولوجية"[1]. ضف إلى ذلك الأيديولوجية، أي القيم في وضعيتنا، هل هي قابلة للكشف عن طريق تحليل الخطاب، الذي تسمح بوضعه النّظرية الحجاجية لاسيما على أساس العوامل المفصّلة في عرضنا، وبالخصوص العوامل الآتية:

- ✓ الطبيعة الحجاجية للخطاب وبروزها عن طريق المواضع؛
- ✓ حجاجية الملفوظ باعتبارها خاصية لتقطيع الملفوظات المتسلسلة في الخطاب؛

1 -0. Ducrot, Polifonia y Argumentation, o.c., p. 151.

- ✓ معنى التّعدّد الصّوتي للملفوظ والخطاب مع تحديد الذّات، والمتلفّظين وعلاقاتهم؛
- ✓ الترابطات بين المواضع والايديولوجية، أي القيم.

خاتمة

نريد أن نختم عرضنا في ظلّ منظور مستقبلي. فعلا، نعتقد أنّ إطار التّحليل الإجمالي يسمح لنا بالتّوصّل إلى فهم عميق للخطاب ليس فقط في التّواصل الاجتماعي، ولكن لكلّ خطاب حجاجي. يميل هذا الأخير إلى البروز كلّما تحدثنا، مثلما يعبّر عن ذلك ديكرو:" وإن بحديثنا نعتقد قول ما تكون عليه الأشياء في الواقع، سوف نكتفي بوضعها في خدمة حاجاتنا. الحديث هو البناء ومحاولة فرض نوع من الإدراك الحجاجي للواقع على الآخر"[1].

لقد كُشف عن الإبهام المهم لأعمال أوسوالد ديكرو Ducrot في تقدّم المعارف المتعلّقة باللّغة، والخطاب والتّواصل في الجماعة العلمية بعيدا عن التّقاربات الطبيعية والتّقاربات في معالجة الموضوعات ذاتها. لنشير فقط إلى إسهامه حول الحجاج، والذي أثار ي الآونة الأخيرة، اهتماما حيّا، وعددا من الأعمال سواء في مختلف تخصّصات العلوم الإنسانية والاجتماعية، وسواء وبالعموم في التّفكير الاجتماعي، والثّقافي والسياسي.

لنلحظ كذلك الإسهام الثريّ للدراسات الحجاجية والبلاغة في الفهم المعمّق للتّواصل الإنساني، وبصفة خاصّة في تقييم للوضعية الأصلية لهذه الأخيرة، بمعنى الإطار الخاص باللقاء بين البشر، والفضاء والمقام، حيث يؤدون جدالاتهم ومناقشاتهم، يقيمون ويفكّون تناقضاتهم وتوافقاتهم. ومثلما يؤكّده المجدّد الكبير للبلاغة شايم برلمان Ch.Perelman :" كلّ نشاط روحي متموقع بين الضّروري والتّعسّفي غير مقبول، إلا في حدود ما يكون مدعّما بوساطة الحجج، وعند الاقتضاء بوساطة المناقشات، التي لا تؤدي من المفروض إلى الاتّفاق الكلّي"[2] . إنّ المناقشة هي التي تهمّنا هنا، والإشارة إليها بالخصوص للكشف عن نقطة التّلاقي مع مؤلفنا في فائدة الحجاج، دون أن ننسى فضلا عن ذلك النّقاط الهامّة، التي تقابل المؤلفين، سواء فيما يتعلّق بطبيعة الحجاج ذاتها، أو ما يتعلّق بعلاقتها مع الفلسفة[3].

في النّهاية، نريد أن نختم على الخاصية الجدالية التي يربطها ديكرو بالخطاب، يحدث ربّما بالتناقض قليلا، أن نكشف عن نوع من المعنى المحرّر. بالفعل في الجدال الذّاتي المشترك للخطاب ليس للأشياء التي نتحدّث عنها، ولا للمبادئ الحجاجية المثارة للحديث عنها وضع تمثيلي للعالم الخارج عن اللّغة. وهو ما لا يدخل لا واقعية العالم الحقيقي، ولا تأثير اللّغة في هذا العالم ذاته.

ما يُراد بذلك وما يروق لنا الإشارة إليه هو أنّ العلاقات الإنسانية المنسوجة في الخطاب ليست لا نتيجة ولا انعكاس واقع سابق للخطاب وخارج عنه. إنّها مدينة لإبداع المتخاطبين مثلما هو حال المعنى.

---

1 -O. Ducrot., Polifonia y Argumentación, o. c., p. 14.
2 -Ch. Perelman, O Império Retórico, Asa, Porto, 1993, p. 170 (L'Empire rhétorique, Vrin, Paris, 1977).
3 -Crf. O. Ducrot, Polifonia y Argumentación, o. c., p. 170.

على ضوء ذلك، يبدو أنّ " صنع المعنى " –بابتكاره وتأويله– مسألة دقيقة وصارمة، وليست بالضّرورة مريحة ولا يكون مخرجها أكيدا. وهو ما لا يمكن أن يكون غير ذلك، مادام صنع المعنى من شأن الحرّية، الشأن ذاته الذي يدفع الإنسان إلى بناء الواقع الاجتماعي، إضافة إلى واقعه الخاص. هذا هو على كلّ حال، المنظور التّحليلي الذي بدا لنا ممكنا تلخيصه في ظلّ آثار التّعليم المتلقى من أوسوالد ديكرو، الأستاذ الشّهير في مدرسة الدّراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس، والذي نلحّ هنا على تسجيل إحساسنا بالشكر العميق تجاهه.

المراجع:

- Aguiar e Silva, V., *Teoria da Literatura,* 5 éd., Almedina, Coimbra, 1983.
- Aristote, *Organon*, *V, Les Topiques*, Traduction par J. Tricot, Vrin, Paris, 1990.
- Benveniste, É., *Problèmes de linguistique générale*, Gallimard, 1966.
- Berelson, B. et P. Lazarsfeld, *The Analysis of Communication Content*, Columbia Univ., N. York, 1948.
- Buhler, K., *Sprachtheorie,* Iena**,** 1934.
- Ducrot, O., "Enunciação", *Enciclopédia Einaudi,* Imprensa Nacional, Lisboa. 1984.
- Ducrot, O., (En collaboration), *Les Mots du discours*, Minuit, 1981.
- Ducrot, O., "Le Structuralisme en linguistique", *Qu'est-ce que le structuralisme,* Seuil, 1968.
- Ducrot, O., "Présupposés et sous-entendus", *Langue Française*, 4, (1969), Larousse.
- Ducrot, O., "Topoi et Formes Topiques", *Bulletin d'Études de Langue Française,* 22, 1988.
- Ducrot, O., *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,* (en collaboration avec Tzvetan Todorov), Seuil, 1979.
- Ducrot, O., *L'argumentation dans la langue* (avec J.- Cl. Anscombre), Mardaga, Bruxelles, 1983.
- Ducrot, O., *Le dire et le dit*, Minuit, 1985.
- Ducrot, O., *Les échelles argumentatives,* Minuit., 1980.
- Ducrot, O., *Logique, structure, énonciation,* Paris, Minuit, 1989.
- Ducrot, O., *Polifonia v Argumentación,* Universidad del Valle, Cali, Colombia, 1988.
- Ducrot, O., *Titres et travaux***,** École des Hautes Études en Sciences Sociales. Paris, 1986.
- Henri, P. et S. Moscovici, "Problèmes de 1analyse de contenu", *Langage*s, nº 11, Septembre, 1968, Didier, Larousse.
- Jakobson, R., *Essais de linguistique générale*, Ed. Minuit, Paris.
- Lévy, A., "L'Interprétation des discours", *Connexions*, nº 11, 1974, Epi.
- Mora, F. F., "Hombre", *Diccionario de Filosofia,* Alianza Editorial, Madrid, 1986.
- Perelman, Ch., *L'Empire rhétorique*, Vrin, Paris, 1977.

* * *